المشرق

التذكار المئوي الثالث لميلاد بوسوئه

(١٦٢٧ــ١٩٢٧)

بقلم الاب فردينان ترتل اليسوعي

بوسُوئه الخطيب الشهير والعلّامة المنير استاذ الملوك ومربي الامراء الكاهن المفضال والاسقف الساهر على مصالح رعاياه، بوسُوئه مصباح كنيسة فرنسة: في هذا العام يعتدون لهُ في بلاده حفلات شائقة تردّد صداها الجرائد والمجلات لتذييع ذكرى حياته ومؤلفاته وافضاله في مناسبة السنة الثلثمئة لميلاده . فرأينا ان نخصص لهُ بعض صفحات المشرق عسانا نشوّق الى الادباء مطالعة مؤلفاته الجليلة وقد تعرّف به اكثرهم ابّان درسهم علم البيان والخطابة الافرنسية واستظهروا من طُرَف كلامهِ ما ثقّف عقولهم ومهّد لهم السبيل الى اجادة التحرير والتفصح في الكلام

١ً الفتى والدارس

جاك بنيني بوسُوئه (Jacques Bénigne Bossuet) ابصر النور في مدينة ديجون قاعدة بورغونية في ٢٧ ايلول السنة ١٦٢٧ . كان ابوهُ مستشاراً في برلمانها ثم انتقل مع اهله الى مدينة متس فنشأ الصبي هناك على حب الايمان وعلى حفظ التقاليد المراعاة في الأُسر النبيلة العريقة بالقدم المتخصصة بوظائف الادارة والقضاء . لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره حتى قدّمه اهلهُ ليتخرط في سلك الاكليريكيين فقُصَّ شعره . وما عتّم ان نال وظيفة كنانية وهو في السن الثالثة عشرة من عمره فدعي قانونياً

لكاتدرائية متس من قبل ان يُرسم كاهناً ، طبقاً لعادة كانوا يجرون آنئذٍ عليها ثم أُلغيت . على ان الفتى لم يخيب امل ابويه فمال بقلبه منذ الصبا الى الكهنوت . ودخل اذ ذاك في مدرسة « غودرانس » للاباء اليسوعيين وجعل ينكبّ على مطالعة الكتب المقدسة فتعلّم اصول الايمان والتقوى مع الشعر والفصاحة . واذ لم يكن في مدرسة غودرانس صفٌ للتعليم الأعلى ختم فيها دروس البيان وغادرها الى باريس فكمّل دروسه في مدرسة ناڤارة . وقد اظهر آنئذٍ من الاجتهاد والثبات والنشاط مع ذهن متوقد وعقل ثاقب وقلب طاهر متواضع واخلاق دمثة لينة ما جعل اساتذته يتوسمون لمستقبله نجاحاً باهراً وخيراً وافراً

وكان بين الكهنة الذين اختلط بهم بوسوئه مدة دراسته في باريس منصور دي بول القديس الشهير بحبه للفقراء وعطفه على المساكين . كان يرشد بوسوئه ويلحّ عليه ألّا يغالي بالانصراف الى العلوم النظرية لئلا يحرم النفوس ثمرة اعماله الرسولية ويتوسل اليه ان يراعي حقوق السذاجة الانجيلية في التبشير لئلا يبعد فهمه عن العقول البسيطة . فاثرت نصائح القديس في قلب بوسوئه وذلك ما جعلهُ يلفت انظاره حياتهُ طولها الى البائسين فيفتقدهم بذاتهِ ويحث القريب على مساعدتهم

٢ الكاهن

خرج بوسوئه من المدارس وهو في الخامسة والعشرين من عمره وقد سيم كاهناً وظفر بشهادة اللغنة . فعاد الى مدينة متس وظلّ فيها سبع سنوات في خدمة المؤمنين يتعاطى شؤون تدبيرهم وارشادهم بغيرة لا تعرف الملل

وكانت آنئذٍ اسبانية مناوئةً لفرنسة ولها أنصار برأسهم « الامير كوندہ » وهو معادٍ للملك فرنسة يتجوّلون في الحدود الشرقية ويعيثون في الارض فساداً فالتقى بهم بوسوئه وعقد معهم هدنةً وضمن السلم والامن للرعية . ولم يسهر على مصالح المؤمنين الزمنية فحسب بل كان يدعو بمرسلين من جمعية اللعازاريين ويعهد اليهم بالتبشير في القرى وكثيراً ما كان يرافقهم ويساعدهم بالوعظ

وكانت متس ملجأ يؤمهُ البروتستانت وهي في جوار المانية فكثر عددهم فيها . فجعل بوسوئه يلتمس السبيل الى هدايتهم وألّف رداً على تعليم احد رُعاتهم . وكانت

متس المدينة الوحيدة في فرنسة يحق لليهود ان يقيموا فيها متمتعين ببعض الحقوق المدنية فحاول بوسوئه تبشيرهم . واخذ يعالج المشاكل اللاهوتية والتاريخية التي يدور عليها الجدال بين الكاثوليك والبروتستانت وبين الكاثوليك واليهود حتى انتهى به البحث الى وضعه كتابيه الجليلين :

الاول تاريخ التغيرات (Histoire des Variations) ظهر في العام ١٦٨٨ بيَّن فيه صاحبه ان الدين البروتستاني فاسد في اساسه لانهُ مبني على البحث الشخصي المختلف مع اختلاف الاشخاص فلا بد ان تكون نتائجهُ متخالفة متناقضة لا يقرُّ لها قرار على حقيقة راسخة دائمة . وقد ابرز بوسوئه قضيتهُ بضروب البلاغة واسلوب واضح مشبع بزخارف الادب تنجلي فيه شاعريته القوية عن ابتداع بالخيال وانسجام ورقة وحماسة في العواطف

اما الكتاب الثاني فهو الخطاب في التاريخ العام (Discours sur l'Histoire Universelle) والغرض منهُ تبيان صحة الديانة المسيحية من ادلة التاريخ لا فقط هداية لليهود ولكن لكل ملحد زنديق وهذا المؤلف هو آية في نوعه يحصى بين مفاخر الآداب الافرنسية (١ وهو ثلثة اجزاء :

الجزء الاول منهُ يستقري تاريخ العصور فيسرد الحوادث متسلسلة مع تسلسل الدهور . والجزء الثاني هو الاعظم شأناً يبيّن مصدر الديانة الالهي ودوامها على تطورات الزمان فيُفحم الملحدين والهراطقة القائلين بحدوثها البشري وتقلبها مع الايام . والجزء الثالث يتكلم في الممالك وفيه فصول جميلة تبلغ غاية ما انتهى اليهِ فن التاريخ من الابداع يمثل فيه بوسوئه العناية الربانية وهي تلعب دورها متوارية تحت مظاهر الوقائع العالمية فهي علتها وغايتها والنقطة المركزية لدائرتها ٥

وكان بوسوئه في متس لا ينفكُّ عن التدريس والبحث يكدُّ نهارهُ في القيام بمهمته الرعائية ويصرف من الليل ساعات طوالاً في مطالعة الكتاب المقدس ومؤلفات الاباء الاقدمين والخصهم ترتوليانوس واوغسطينوس . فقال عنهم انهُ وجد في كتبهم كل ما يُحتاج اليهِ انسان لتعليم الديانة والمدافعة عنها فلا مزيد عليهم لمستزيد . ولم

١) قد عرَّبهُ الاستاذان شاكر افندي عون وعبدالله افندي البستاني وطبعاه في المطبعة العمومية الكاثوليكية في بيروت (١٨٨٢) في مجلد ثمن القطع عدد صفحاته ٣٣٦

يكتف بوسوئه بالطالعة بل كان يبذل جهده بالتأليف ولا يكل عن اعادة النظر بتآليفه ليصلحها وقد عثروا على بعضها وهي مكتظة بخطوط وملاحظات تدل على ان بوسوئه لم يرض بانشائها النهائي الا بعد ان صرف ساعات وهو يعمل القلم فيها. مما يبين باجلى تبيان ان عظام الرجال وقادة الفكر لا يدركون مآربهم بقوة فطرتهم الطبيعية فحسب ولكن بعنائهم وثباتهم على العمل لان النبوغ الحقيقي لا ينشأ وينمو ويثمر بالأضعاف ما لم يحل في ارض يعنى بها صاحبها فيفلحها ويمزقها ويسقيها بكد وسعي دونه عرق القربة. وقد انتبه رفقاء بوسوئه لاجتهاده الفائق فكانوا يتلاعبون باسمه باللغة اللاتينية ويقولون فيه على ما بلغنا عنهم: Bos suetus aratro «الثور الملازم المحراث» اشارة الى انكبابه المتواصل على المطالعة والعمل وما كلامهم الا مصداق لقول الشاعر: ومن طلب العلى سهر الليالي

وما لبثت شهرة بوسوئه ان شاعت في متس وفي انحاء البلاد حتى بلغت العاصمة. فارسل القديس منصور دي پول يدعوه الى باريس. وحدث ان الملكة حنة النمساوية كانت في متس وسمعت بوسوئه يلقي عظته في مديح القديسة تريزيا فأعجبت به وطلبته ايضاً ليكون خطيباً للبلاط الملوكي. فمضى الى باريس وقد ادخر لنفسه من كنوز المعارف والاختبار ما يمهد له السبيل لوضع مؤلفاته العديدة ومواعظه البديعة

٣ الواعظ

اقام بوسوئه عشر سنوات في باريس (١٦٥٩—١٦٦٩) القى في اثنائها مواعظ الصوم الكبير ومواعظ صوم الميلاد على اربع سنوات ومواعظ غيرها كثيرة وتأبين توفق الى تعيين تاريخها يوم القائها «الا نبا لبارك» ناشر مواعظ بوسوئه. فجاءت مجموعة بديعة لا نبالغ ان نقول انها اجل ما فاه به خطيب تستم منبر الخطابة

ومن الغريب المدهش ان معاصري بوسوئه على اعجابهم بفصاحته لم ينصفوه في حكمهم ولعل بعضهم فضل عليه غيره من الوعاظ في تلك الايام. وقد ظلت آثار هذا النابغة متوارية محتجبة في زوايا المكاتب والنسيان الى ان اخذ العلماء

المحدثون يخرجونها من طيات الاهمال ويمعنون النظر فيها فاذا هي تسحر الالباب وتسبي العقول

هل من سبيل الى كشف النقاب لقراء العربية على محتويات تلك المواعظ الباهرة؟ ألا يطير عبير ذكاء هذا الطيب اذا نقل من لغة الى لغة ومن اناء الى اناء؟ اليس الاولى بنا ان نروي بوسوئه بتنه الافرنجي على صفحات المشرق فيزينها ويفيض على قرائها من جميل محاسنه ما يبهر العقول ويأخذ بمجامع القلوب؟ وهل يتسامح الادباء بتعريب بوسوئه وايّ لسان يُترجمهُ ولا يميا عن تبيان فصاحته وبلاغته؟ ومع ذلك فاننا نتقدم الى القراء ببعض شذرات من مواعظه يتخللها ملاحظات يستعين بها القارئ على معرفة الظروف التي أُلقيت فيها

واول ما يقال في مواعظ هذا الخطيب انها اتت مرآةً لنفسه وعنواناً لفضائله لانهُ بذل جهدهُ كي يسلك في سيرة حياته طبقاً للمبادئ المسيحية التي اخذ على عاتقه امر تلقينها المؤمنين. فكانت مسؤوليته العظمى دوماً تجاه عينه فيترفع عن الدنايا ويحتقر استحسان البشر ولا تهمهُ الفصاحة الباطلة والتأنق في الكلام الا بما كان يؤول امره لاكتساب حسن التفات السامع وادراك السبيل الى هدايتهم. وكان يشبّه الواعظ المتصرف بكلام الله بالكاهن القائم على الهيكل ليتصرف بجسد ودم المسيح طبقاً لارادة المسيح

وفيما هو يقف خطيباً امام الملك والامراء لم يحجم عن ابداء حقائق الانجيل بكل ما تطلبه من صراحة وحرّية رسوليّة فينذر الخطأة بالعقاب ويفضح شناعة سلوكهم ويتوعدهم بشرّ المنقلب. حتى ذهب الى القول: «ايها الدهر العقيم بالفضائل المخصب بالالقاب ... لقد شهدَتْ عليك مضاربك وزخارفك وحالك والقسابك بالخساسة والدناءة». وكان كلامهُ يتجاوز السامعين الى شخص العاهل فيخصُّهُ من اعالي المنبر بنصائح موشاة بالمديح انما فيها من التبكيت والعاني اللاذعة ما لم يخفَ معناه على رجل عاقل من امثال لويس الرابع عشر. فمن اقواله له: «سيدي لا خطر عليك الّا من نفسك ومن نَصَرك وعجبك الشخصي وسلطانك الذي لا حدَّ له. فما احوجك الى هذه المزايا لتحسن تدبير المملكة ولكن ما اعظمها خطراً عليك في تدبير امر نفسك ... خذ يا يسوع واجتذب اليك قلب هذا العاهل حتى اذا وهبك ذاتهُ كان

خليقاً بان يقود اليك الخلائق اجمعين »

كان يتذرع بوسويه بسلطته الرسولية ليرمي بسهام الملام والتقريع جمهور النساء اللواتي كنّ يلجن المعابد بقلة احتشام ولاغراض عالمية فوصفهن وقال : « يدخلن الكنائس رافعات الرؤوس . يخترقن جمهور المؤمنين بجلبة وضجيج ويلقين انظارهن في الجهات الاربع عن جرأة ... اية هي الغاية لكشف هذه النحور وهذه الاكتاف ؟ ليس لها غاية الا ان تكون حجر عثار او طعاماً لشجع الشهوات »

ولم يستحي ان يقف تجاه اعيان البلاد وامرائها وقفة نائب المسيح في منبر الحق لينبه ضمائرهم ويبكتهم على كبريائهم وطموحهم الى المناصب وبغضهم للحق ورياثهم ومخاطرتهم بخلاصهم الابدية حتى انهم يتعرّضون بعنادهم وكفرانهم بالنعمة الى شر منقلب وشر مصير

وكم من مرة قام بينهم خطيباً لينتصر للفقير عليهم فيعيّر الموسرين بشقاء المدقعين ويتهمهم بقتل الفقراء اذ يتركونهم يموتون جوعاً على ابواب القصور بينما هم في بحبوحة العيش رافلون . ومن درر كلامه في هذا الصدد ما قالهُ عن العلل التي تقتل الشفقة في قلوب الاغنياء وتجعلها صمّاء عن سماع صوت الفقراء . قال :

« ايها الاله العادل الرحوم ! انك لم تشارك عظماء الارض بشعاع من اشعّة قدرتك ليؤدي بهم الى الهلاك بل جعلتهم عظماء ليكونوا انقاذك آباء . ودبّرت بعنايتك فابعدت العاهات عن رؤوسهم ليفكروا بعاهات القريب واطلقت سراحهم في رخاء من العيش ليأخذوا على عاتقهم شيئاً من حمل اولادك المساكين . وهاانا عظمتهم تجعلهم مزدرين ، وخصبهم عقيمين ، وسعادتهم صلبي الافئدة ، يشاهدون يوميًّا الفقراء والاشقياء بل بل الفقر والشقاء بالذات ، باكياً يدق على ابوابهم . انّى لهم هذه القساوة المدهشة ؟

« قسّوا قلوبهم ! ولا عجب ايها المسيحيون ! الان غيرهم من الفقراء المدقعين وهم اشدّ جوعاً من اولئك قد احاطوا بالمرافق القربى واستهلكوا الحسنات عن طرائق سرّية خفية . واليكم معنى كلامي بالايضاح . اتكلّم فاعني بهم الفقراء الباطنين الذين وان بلغت العناية بهم مبلغها رجاء ان يشبعوا فهم لا ينفكون يشكون وينّون ، جائعين دوماً ، ودوماً ظمّاءين ، وانتم عليهم مسرفون مفرطون . اعني

بهؤلاء الفقراء اميالكم وشهواتكم. انك لتئنُّ على الابواب، عبثاً؛ يا لعازر! يا مسكين فان هؤلاء الفقراء قد وجدوا السبيل الى القلوب فدخلوها ووقفوا فيها لا وقفة الموالي ولكن وقفة المحاضرين. مدّوا يدهم لا للسؤال ولكن للسلب. يا لله! ما اشدَّ عُنفهم!

«تصوَّروا ايها المسيحيون! صعاليك الشعب في معمعة الفتنة وقد اخذت منهم الوقاحة مأخذها اذ يعرضون حاجتهم. فان تُرفض فهم على اغتصابها مصرُّون. تلك هي الحالة في نفس الغني الشرير. وما بالنا نلتمس قصَّتها في المثال الانجيلي وهي حكاية يغني عنها ما تتحدث به ضمائر الاكثرين. نعم لقد ضجَّت الشهوات في نفس هذا الغني الشرير وفي انفس من جرى على مثاله فخلعوا سلطان العقل عن عرشه وفكُّوا قيود الناموس. هي الرذائل: بخل، وطمع، وزهو: فتة شكس وشغب، تصخب وتنادي فلا يُسمع لها الّا هذا الصراخ: «هات هات» (امثال ٣٠: ١٥) هات الطعام للبخل، والوقود للنار الآكلة! زد بالتفخُّل يوماً على يوم، واجمح في جهالات البذخ والتأنق! هات الملاهي، ولتكن ألذَّ من ذي قبل، لان الشهوة على شبعها قد ملَّتها فتطلب غيرها! اصوات الوقاحة والاستكلاب! كيف لا تخنق صوت انين الفقراء المتضورين جوعاً امامكم وقد اعتادوا قهر نفسهم بكدّهم وعرق جبينهم؟ وفيهم من يفضل كأس المنون على ان يفضح امرهُ ويُكشف شقاءهُ. فانهم لذلك يموتون جوعاً! نعم سادتي. انهم يموتون جوعاً في املاككم، وقصوركم، وفي المدن والارياف وعلى ابواب منازلكم وفي جوارها، ولا مغيث لهم ولا معين. واحسرتاه! لا يسألونكم الّا ما يفضل عنكم ويزيد: فتات الخبز الساقط من موائدكم بقايا طعامكم الفاخر

«على ان الفقراء الذين تغذونهم في باطنكم بسخاء واسراف هم الذين يستهلكون مالكم. والافراط هو عندهم تفريط. وما يفضل عنهم ويزيد فهو لهم عوز وحاجة ولذلك ليس من رجاء لفقراء يسرع المسيح ان لم تبادروا فتطفئوا نيران الشهوات والعصيان الداخلي. فيعيش هؤلاء المساكين بما يفيض عن اسرافكم وبما يتركهُ بخلكم».(١)

(١) راجع Sermon sur l'Impénitence finale, 3e point

واننا نستميح القرّاء بتعريب قطعة ثانية من عظة بوسوئه في الموت استهلها الخطيب بآية اخذها من الكتاب المقدّس « انك جعلت ايامي اشبارًا وعمري كلا شيء امامك. انما كل انسان قائم باطل اصلًا » (مز ٣٨: ٦) فعلّق عليها وقال:

«نعم هو باطل اصلًا، لانما يقاس هو كلا شيء؛ لان كلّ مقيس لهُ حدّ، اذا انتهى اليه ابادت آخر نقطة منهُ كل ما سبقها فكان كما لو لم يكن. ما هي مئة سنة؟ وما هي الالف؟ فبرهةٌ واحدة تذهب بها! عمّر اياماً تبلغ بها أيام الأبل الذي يقال عنهُ في الاساطير او في تاريخ الطبيعة انهُ يحيا اجيالًا. عش مديدًا كما يعيش السنديان الجبار الذي استظل بظلهِ اجدادنا وسوف تتفيّأ تحته الذراري واجمع، في هذا التّسع من الزمان الذي لا يحصرهُ عقلك، وادّخر: المجد، والغنى، واللاهي، فما عسى ان يفيدك ما يتراكم منها وانفاسك الاخيرة الضعيفة الواهية عند انقضائها تذهب بذلك العز الباطل وتهدمهُ انهدام بنايات الورق التي تشيدها اصابع الاولاد. لن يبقى على الردى اثرٌ لما نحن الآن، الجسم يغير طبيعتهُ والجسد يغير اسمهُ واسم الجثمان يزول فيتحول كما يقول ترتوليان الى لا شيء او الى ما ليس لهُ اسم في لغة البشر. وقد عمل فيهِ الموت ما عمل حتى ذهب بالالفاظ الفجمة التي كانوا يطلقونها على بقاياه المنكوبة»

فيا ليت المجال يتسع لنروي عن بوسوئه لا مقاطيع وجيزة ولكن عظات بكاملها الّا اننا نحث القارئ على مطالعتها في اصلها فيجد بنفسهِ من محاسن الادب وبدائع الفصاحة ما يعجز عن انشائه قلم التعريب

٤ المعلم والمهذّب

في ١٣ ايلول من العام ١٦٧٠ دنا الملك لويس الرابع عشر بوسوئه اليهِ وعهد اليهِ بتعليم وتهذيب ولده ولي العهد لعرش فرنسة! فصرف بوسوئه همته عن كل ما يشغلهُ عن هذه الوظيفة ليسعى في تربية الصبي المرشّح للملك على البلاد. كان يجتمع بهِ ثلاث مرات كل يوم حتى في اليوم الاحد وكان يلقنهُ العلوم كافةً الّا الجغرافية والرياضيات. وكان الولد في التاسعة من عمره تتثقف مدة عشر سنين لكن قلة همته ونشاطه حالت دون الترقي المرغوب لهُ من ابيهِ ومن استاذه. عصرت يد المنون غصن حياته وهو شابٌ فلا يُتاح لنا ان نعرف نتيجة اتعاب بوسوئه على تلميذه بيد

انها لم تذهب ضياعاً لانها اثمرت مؤلفات شتى وضعها الاستاذ لابن ملك فرنسة وظلت تراث الاداب الافرنسيَّة على مدى الاجيال. منها المؤلف المذكور سابقاً اعني الخطاب على التاريخ العام ومنها «كتاب السياسة اخذاً عن الكتاب المقدس» و«كتاب معرفة الانسان لله ولنفسه»

ولم يكن بوسُوئه يرمي في مؤلفاته الى تهذيب ولي العهد فقط بل كان في الوقت عينهِ يضع مؤلفات للاحداث مثل كتاب القراطيق ووضَعَ كتاب التعليم المسيحي. فاهتدى بذكائهِ ونبوغه الى معرفة احتياجات الاولاد الصغار وانشأ لهم مصنفات دينيَّة قريبة المنال سامية المعاني. واذا سألهُ احد كيف يستطيع الصغار ادراك هذه الحقائق العظمى فكان يجيب: «لقد علمتنا الخبرة ان الصغار يفهمون هذه الاشياء تدريجاً على شرط ان تُشرح لهم بالفاظ وجيزة مدققة.» ثم كان ينصح اساتذة التعليم المسيحي قائلاً: «اضيفوا الى تعليمكم بعض القصص المأخوذة من الكتب المقدسة او من بعض المؤلفين الثقات لانها تسحر الالباب وتنبه الاذهان» وقال ايضاً: «لقد ادرك مأربهُ من ألبس الحقائق حلة شائقة عند عَرْضها»

٥ الاسقف والمرشد

في العام ١٦٨١ اقيم بوسوئه اسقفاً على مدينة مو (Meaux) ومنها نال لقبه الشهير «نسر مدينة مو» وفيها قضى ٢٤ السنة الاخيرة من حياته. وهو مثال الورع والتقوى والغيرة والمحافظة على قوانين الكنيسة. يتجول في انحاء ابرشيته تفقداً لشؤون الرعايا فيلقّن الصغار مبادئ التعليم المسيحي ويكتسب قلوب البروتستانت بوداعتهِ وصبره وخدماته

وقد تدخَّل بوسوئه في امر قضيَّتين دينيَّتين كان لهما شأن عظيم في ايامهِ الاولى منها هي المعروفة بالكرياتيسم (le Quiétisme) اي الاستراحة والسكينة. عنوا بها عن ذلك التعليم المؤدي الى راحة النفس وسكينتها المطلقة في الصلاة حتى انها تبلغ الكمال بمجرد تسليم ذاتها الى الله دون ان تكترث لإبراز افعال تُكسبها اجراً او تحميها عن الشرّ

وكان الاسقف فنلون مناصراً لهذا التعليم فجاراه بوسُوئه واقنعهُ بضرورة إعمال

القوى العقليَّة في اتحاد النفس مع الله وان تكن بلغت شأوًا بعيدًا في ميدان الكمال

وكتب بوسوئه مؤلفات شتى ارشادًا للنفوس في طريق الحياة الروحيَّة اهمها التأملات او ارتفاع النفس في اسرار الديانة (Elévations sur les mystères) وهي مشبعة بروح التقوى والايمان لا تزال الى يومنا قوتًا شهيًا تسوغهُ النفوس المسيحيَّة وتتقوى بهِ على محبة الله وعلى ممارسة الفضائل

اما القضيَّة الاخرى فهي معروفة بالغاليكية (le Gallicanisme) نسبةً الى غالية (اسم فرنسة باللاتينيَّة Gallia) وهي تشمل تعليمًا ظهر في فرنسة تأييدًا لسلطة الملك المطلقة وشاع خاصةً على ايام الملك لويس الرابع عشر. كان الملك بحسب هذا التعليم يدَّعي بالحق على اموال الكنائس المرملة من اسقفها. فاحتجَّ الاب الاقدس على هذا الاجحاف بحقوق الدين وتوترت العلاقات بين رومة وباريس. فدفع بعض الزعماء الملك لويس الرابع عشر الى ان دعا اساقفة فرنسة الى عقد جلسة عامة لتنظر في ذات البين على امل ان يتَّفقوا في اعلان استقلال كنيسة فرنسة. وتهلل للخبر الانكليكان في بريطانية العظمى اذ رأوا فرنسة الكاثوليكية على قاب قوسين من الشقاق عن رومة

لكن العناية الربانيَّة كانت ساهرة على حفظ الايمان في قلب «ابنة الكنيسة البكر» فالتأم الاساقفة سنة ١٦٨٢ وما بينهم بوسُّوئه وقد تعيَّن مستشارًا للدولة في الشؤون الكنائسيَّة وندب ليلفظ الخطاب في مؤتمر الاساقفة، فالقى عظتهُ الشهيرة في وحدة الكنيسة اتى فيها بآية من آيات البيان مراعيًا حقوق الاتحاد اولًا، مستحثًا عليهِ اخوتهُ الاساقفة. وان يكن سقط من خطابه آنئذ بعض كلمات تشفُّ عن روح التعصب لكنيسة فرنسة، وان يكن وقَّع اسمهُ على البنود الاربعة الشهيرة التي وافق عليها مؤتمر الاساقفة الافرنسيون، وهي تعلن كنيسة فرنسة مستقلة عن الحبر الاعظم، فأمضى تلك البنود، لاعتبارهِ انها وسيلة تذرع بها ليتوقَّى شرًا اعظم، وهو انشقاق كنيسة فرنسة عن الوحدة الكاثوليكيَّة. ومما يشهد على حسن نيته انهُ قال عن البنود المذكورة «دعوها تذهب الى ما شاءت نسية منسيَّة» ومما قالهُ في نهاية خطابه في وحدة الكنيسة هذهِ العبارات المؤثرة:

«ايتها الكنيسة الرومانيَّة المقدسة! امّ الكنائس وام المؤمنين اجمعين! ايتها الكنيسة المصطفاة من الله لتجمع بنيهِ بايمان واحد ومحبة واحدة اننا متمسكون

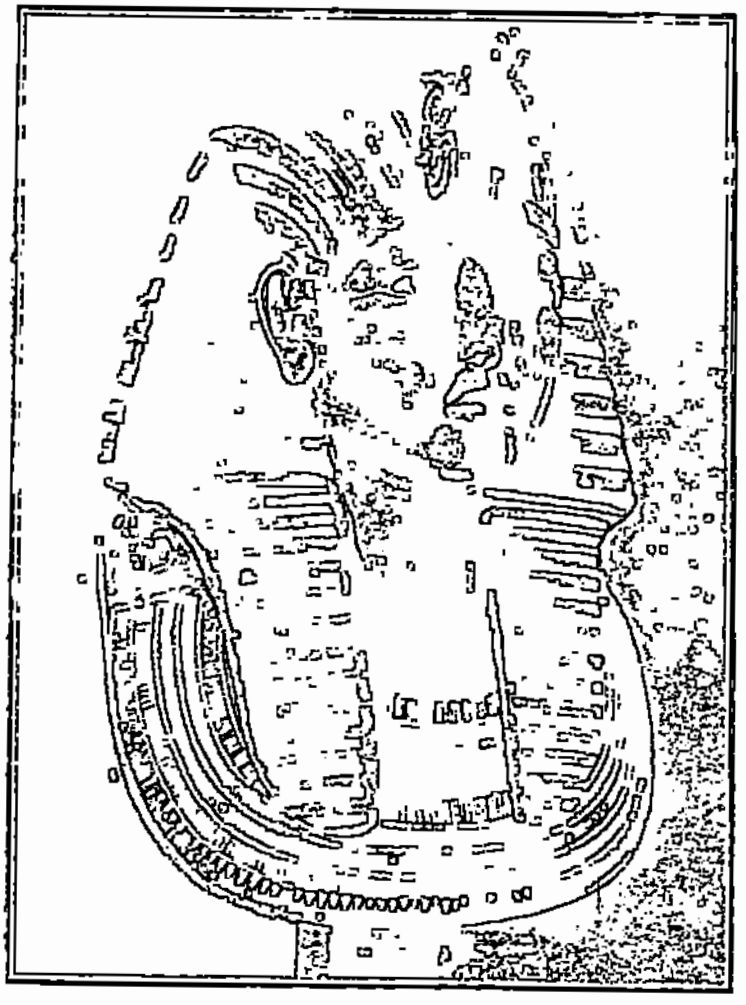

الفرعون توت عنخ امون

بوحدتك بجنّات افتدتنا. ان نسيتُك ايتها الكنيسة الرومانيّة فلتنسني يميني وليلتصق لساني بحنكي ان لم أذكرك وان لم أجعل اسمكِ على ذروة فرحي » (مز ١٣٦ : ٦)

فنجح بوسوئه بمساعاه وارفضّ جمهور الاساقفة ولم يثل الاتحادَ الكاثوليكي ضررٌ ولا حيف. وظلت فرنسة متمسكة باهداب الكثلكة الى يومنا وبعض الفضل في ذلك يعود الى هذا الرجل العظيم. فكان بعلمه وفصاحته وغيرته وتدبيره اشهر ممثل لاساقفة بلاده في العصر السابع عشر ولذلك لم يُغالِ لابرويار النقّاد الادبي اذ ذكرهُ في المحفل الافرنسي فدعاه « ابا كنيسة فرنسة في القرون الحديثة. »

كان بوسوئه في ابرشية مو يقوم بواجباته الاسقفيّة بين ارشاد وتعليم وتأليف اذ دهمهُ المرض الاخير فجعل يعجّل تكميل كتبه شأن العامل النشيط الذي اذا شعر بغياب الشمس اكبَّ على العمل لينهيه قبل ان يدركهُ الظلام. فاعاد النظر في « كتاب التأملات في الانجيل » وسلم للطبع « شرحه في اشعيا » ولم ينتهِ من « كتاب السياسة » الّا وافاه ملاك الموت وهو يترقبهُ، ترقب الجندي لسيده سلاحهُ بيده. وكان على علمه ونبوغه ورفاعة مكانته في عالم الدنيا والدين وديعاً متواضعاً زهيداً في الدنيا وزخارفها. لم يلتمس قط من الملك مكافأة او وظيفة لاهلهِ وذويهِ بينما كان غيره يتذرّعون بالزلفى ليرفعوا اقرباءهم الى المقامات السامية. ولو أراد لنال لنفسهِ وظيفة كردينال او أقيم رئيس اساقفة على باريس. لكنهُ احبَّ العزلة وتنحى عن امجاد العالم. وقد جادل حيناً عن حسدَّة لكنهُ اظهر اللين والمحبة في جميع الاحايين مبتغياً الفوز لا لنفسهِ ولكن للحق. تعلّم محبة الفقراء منذ صغره ثم على القديس منصور دي پول فكان لهم اباً حنوناً شفوقاً واخذ عن القديس فرنسيس دي سال معاصرهِ منهجهُ في هداية النفوس التقية الى ذرى الكمال. لم يلتمس لنفسهِ راحة ولا رفاهية بل تقشّف باكلهِ وشربهِ وسكناه. اختلط بالعالم وعظماءهِ واحتقر اباطيله فلم يغترّ بزوره ولكن حافظ على وديعة الايمان وعلى نعمة دعوته بغيرة ومحبة واخلاص. فلا عجب ان يُسرع وطنهُ بل عالم الدين والدنيا جميعاً الى تمجيده في هذا التذكار الثالث لمولدهِ